الشرق والغرب: وَهْم الثنائيات

محمد الشحي

مُنذ ما يزيد على العقد من القرن الحادي والعشرين، وبعد الأزمة بين الشرق والغرب، الإسلام والعلمانية، الحداثة والتقليدية (الأصولية)، منذ ذلك الحين -وأعني أحداث الحادي عشر من سبتمبر- ولا يفتأ الباحثون الاجتماعيون، والمنظّرون من المثقفين وأصحاب النخب، يتحدثون عن ضرورة الالتفات إلى الذات العربية (الإسلامية) التي وقعت في حيص بيص إزاء الموقف المحرج الذي سببه بن لادن. وكثرت الأدبيات التي تتحدَّث عن مفهوم «الهوية»؛ من حيث أنَّ الهوية هي التي تميِّز فردا (أو جماعة) عن غيره من الأفراد.

ويتطرَّق إسماعيل نوري الربيعي -في مقاله المعنون بـ«الغرب والإسلام؛ أضداد أم أندادا؟»- إلى طبيعة العلاقة التاريخانية بين الغرب والإسلام؛ محاولا الوقوف على توصيف اجتماعي مُرض إزاء العلاقة المتوترة في الثنائية التي غذّتها السلطة الرابعة (الإعلام). وفي نظري، أنَّ التركيز على الثنائيات في تحليل الأحداث السياسية وصولا لتقديم مفهوم مثل «الهوية»، هو ضرب من وضع القيد على اليد، وتنميط البحوث والتوصيفات؛ لأن الثنائيات، غالبا ما توقع الباحث في مقارنة هو في غنى عنها، وبالإمكان الاستغناء عن هذه التوصيفات (الجاهزة نسبيا) بالتحليل المعمّق للذات المكونة للنسيج الاجتماعي في كل من طرفي النزاع الموهوم.

تحدَّث الربيعي في البداية عن طبيعة العلاقات التي تفرضها الحالة العالمية الراهنة من تبدلات، وتغيرات، تطرأ على نقاط تقاطع أي حضارتين مختلفتين. وأفضّل إعادة هيكلة مقاله في ثلاثة أجزاء تشكل، في نظري، الطريق العام الذي سلكه الربيعي؛ هي: الهوية العربية الإسلامية، الهوية الغربية الرأسمالية، طبيعة العلاقة بين هذين الطرفين (على افتراض أنهما على طرفين).

(١)

لا حاجة لنا بالعودة إلى الوراء كثيرا أثناء حديثنا عن الهوية العربية الإسلامية؛ لأنَّ من شأن ذلك أن يستهلك الكثير من الحبر في موضوع أنهك بحثا وتوصيفا. وسأعتمد في توصيفي للهوية العربية الإسلامية على ما قدمه نصر حامد أبو زيد، في كتابه «مفهوم النص»، من أن الثقافة العربية ثقافة نص بامتياز؛ بدءا من النصوص الشعرية الجاهلية التي أعطيت المركزية وعُلقت على أستار الكعبة (بغض النظر عن موضوعية الخبر، إلا أنه يشكل صورة عن الوعي العربي حول النص)، وليس انتهاءً بمركزية النص القرآني الذي تفجرت منه علوم لغوية، ودينية، ولاهوتية.

هذه الهوية التي وجدت نفسها متراجعة أمام الاحتلال الأوربي تارة، وأمام الدولة الناشئة (إسرائيل)، مما ولَّد نسقا اجتماعيا يجعل من نفسه حاميا للمجتمع، وضامنا له من هزائم أخرى قد تأتي. نسق محافظ أصولي صحوي؛ سواء على المستوى الديني (المذهبي)، أو على المستوى الاجتماعي (العادات والتقاليد). فانكفأت الذات العربية الإسلامية على ذاتها ونصوصها التراثية، وتوقفت عن مواكبة الركب العالمي الذي لا ينتظر أحدا؛ باحثة في ذلك عن ذاتها المغتربة في هذا العالم الذي يتفرد الغرب الرأسمالي بحكمه سياسيا واقتصايا ومعرفيا.

لا تملك هذه الهوية سوى أدوات الدفاع النفسية؛ أولها: الإسقاط الذي يصب مكنونات الذات المتراجعة على «الآخر» المتفوق؛ وبالتالي يحاول إظهاره في مظهر النفعي المادي الذي لا يعير اهتماما للجانب الروحي. ومن هنا يبدأ الأصولي بـ«تعويض النقص النفسي» عن طريق تجاهل الرجعية التي يقبع بها منذ قرون، والالتفات إلى مظاهر «لا أخلاقية» عند الغربي.

(٢)

وفي الطرف الآخر من الصراع المفترض، تتشكَّل هوية غربية رأسمالية، هوية تحرُّرية من كل قيود الدين والمجتمع مشكّلة بذلك ذاتا معجبة بنفسها، تجعل من ذاتها مركزا للأرض، وتجعل من العرق الأبيض متفوقا على غيره من الألوان الأخرى. ذات عانت كثيرا قبل أن تصل إلى ما وصلت إليه من حال ليبرالية (تقليدية)، وقدمت القرابين على شكل مفكرين تجريبين على مذابح الرب (جاليليو جاليلي مثالا).

إعجاب الذات الأوروبية بنفسها، دفعها للوقوع في مهاوٍ عديدة قبل أن تهدأ نوعا ما. فعلى الجانب المعرفي، صدح كارل ماركس بمقولته التي هزّت العالم، ولا تزال، وهي «الدين أفيون الشعوب». مقولة جعلته يندد بكل موروث، ويدعو إلى القطيعة المعرفية بالتراث، والالتفات إلى المادية الجدلية؛ واهمًا أنَّ ذلك هو الطريق نحو العدالة الاجتماعية، والانتصار للإنسان الكادح. وكان لتلك الصيحة ما لها من انعكاسات سياسية واقتصادية ما يندى لها الجبين؛ فكم عانى العالم من النازية والفاشية اللتين تُعَدّان تطبيقَين (وإنْ سيئين) للنظيرات الماركسية. فقامت الحروب العالمية التي حاولت جاهدة إقصاء النظم الأخلاقية، الاجتماعية أو الدينية، وإرساء نظام أكثر عدالة.

ولاحقا.. لم تصمُد هذه الدعاوى أمام وعي الإنسان الأوروبي الذي وجد نفسه أمام تناقضات عديدة. فنشأ ما يُعرف بـ«الليبرالية الجديدة» أمام التقليدية. ليبرالية تدعو إلى مفاهيم إنسانية كبرى من مثل الحرية، والعدالة، والمسؤولية، والأخلاق. هذا التطور في مفهوم الليبرالية سنجد أنه لم يفرض نفسه بعد بما فيه الكفاية حتى في الذات الأوروبية فيما يتعلق بالعلاقة مع الآخر؛ مما يجعلها في تناقض آخر.

(٣)

وفي طبيعة العلاقة بين الغرب والإسلام، يفترض الربيعي وقوع «ذات» كل منهما في طرفي نقيض. والحق أن كلا الذاتين يعملان بعقلية تتشابه إلى حد كبير على مستوى القرارات السياسية والاقتصادية والمعرفية، حتى وإن بدت الغربية متفوقة، والشرقية (الإسلامية) المتراجعة.

فانكفاء الذات الشرقية (الإسلامية) على ذاتها، وشبقها بالتعلق بأي سبب لتبرير تراجعها، جعلها ذاتًا تعاني مرضًا عصابيا لا أظنها تبرأ منه قريبًا. مرضٌ دفعها للأصولية الدينية التي ارتمت على موروثها تفسره حرفيًا؛ ببساطة لأنها تشعر أنها لا تملك الوقت لطرح مزيد من التفسيرات التي من شأنها أن تجعل الذات الإسلامية متفرقة شيَعًا أمام وهم توحّد الغرب للإضرار بها. نتج عن ذلك تيارات تصادمت مع الغرب في علاقة بدائية، بما نادت به من «جهاد»، وأطلق عليه الغرب بـ«الإرهاب»؛ في سبيل كسر شوكة الغرب المغترّ بنفسه، الطامع بما عند الشرق من ثروات مادية (نفطية)، وإفساد لعقول المسلمين بتلك النفعية «اللا أخلاقية».

وأما على الطرف النقيض؛ فقد دفع اغترار الغربي بماديته التجريبية، وفلسفته التي أعطته شعورا بالمسؤولية أمام الإنسان، وأنه الضامن له من الاستمرار في تخلفه -دفعه ذلك إلى النزوع إلى تصدير فلسفاته إلى العالم بطرق مختلفة.

لكنَّ الغربي بذلك، يقع في تناقض مع ذاته في طبيعة علاقته بالشرق الإسلامي؛ فهو الذي ينادي بالفردانية والحرية، نجده يسعى وراء تطبيع العالم بطابع واحد. طابع السوق العالمية الواحدة، والاقتصاد الرأسمالي، وسياسة «إما أن تكون حليفي وإما عدوّي». ويستخدم من أجل ذلك جميع سلطاته؛ السياسية، والاقتصادية، والعسكرية، والإعلامية، والفكرية المعرفية. ولا أدل على ذلك، على مستوى السينما، من العدد الهائل من الأفلام التي تصور الرجل الأبيض الغربي منقذا للعالم من كل الهجمات الشريرة (السوداء غالبا) أو الكونية الفضائية.

... نلاحظ أن العقلية هي هي عند كلٍّ من الشرقي والغربي؛ وبالتالي تنتفي الثنائية لتذوب في واحدية الفكر الإنساني الذي لا يفتأ يبرر نفسه وأفعاله. وفي رأيي، فإن الربيعي، وإن حاول الاستفاضة في توصيفه للحالة العالمية من صراع، لكنه لم يجنح إلى العمق، ولو فعل ذلك لاكتشف وهم الثنائيات وحقيقة واحدية الفكر الإنساني.

Alshehhim@hotmail.com